الفصل الرابع عشر

التّفوّق: هدف مهمّ في المدارس، لكنّه مُضلِّل

يهدف هذا التّقرير توفير بعض البيانات الأوّليّة ذات العلاقة بالتّباين في مستويات التّميّز، ليكون نقطة البداية للنّقاش على مستوى البلاد بخصوص أهميّة التّمييز في أنظمة التّعليم من مرحلة الحضانة حتى الصّفّ الثّاني عشر. (Plucker, Burroughs & Song, 2010, p. 1).

سؤال رئيس
• كيف يبدو التَّميُّز بالنسبة لطلّاب المدارس الابتدائيّة أو المتوسطة أو الثّانويّة في عصر الكفاية الحاليّ؟

يبدو التَّميُّز من القيم والمبادئ الّتي لا يختلف عليها كثيرون، فكيف يمكن لأيّ فرد معارضة مثل هذا المفهوم؟ ومع ذلك، هناك من يشجّع على التَّميُّز بصورة انتقائيّة في أمتنا، ومدارسنا، ومجتمعاتنا؛ يبتهج النّاس كثيرًا بالتّميّز الرّياضيّ، ويناصرونه في المجالات الفنِّيَّة، ولكنّ الأهمّ من ذلك وجوب قيام المربّين كافة بوضع التَّميُّز هدفًا لتعليم الطلّاب جميعًا، وفيهم الموهوبون والنّابغون.

التَّميُّز في المدارس الأمريكيّة

جاء في تقرير التَّميُّز الوطنيّ: قضية تطوير المواهب الأمريكيّة (U.S. Department of Education,)، وهو التّقرير الوطنيّ الثّاني عن تعليم الموهوبين:

> «غالبًا ما يعجز طلّاب أمريكا الأكثر موهبة عن تحقيق قدراتهم الكاملة في كثير من المجالات العقليّة والفنِّيَّة. وهم في العادة يصرّون على متابعة ما يستهويهم. إنّ الطّريقة الّتي يتعلّمون بها تفصلهم عن معظم الطلّاب الآخرين، ما يمثِّل تحديًّا للمربّين وأولياء الأمور».

لقد أكّد هذا التّقرير وجود أزمة صامتة في تعليم الطلّاب الموهوبين، ما يعني أنّه «سوف يمرّ جيل كامل آخر، ونحن لا نلمس تأثير عدم قيامنا بتطوير قدرات الطلّاب الموهوبين، فضلًا على تجاهل مواهب أطفال الأقليّات والمحرومين».

ومع صدور قانون (عدم إهمال أيّ طفل (No Child Left Behind (2001 «تراجع التَّميُّز إلى المرتبة الثّانية. وقد ذكر لفليس وآخرون (Loveless, Farkas, and Duffett 2008,) أنّ غالبية المعلِّمين يشيرون إلى أنّهم يضعون الطلّاب الضعفاء، بدلًا من الطلّاب الموهوبين، على قمّة أولوياتهم». ومع التّأكيد الحالي على جعل الطلّاب جميعًا يصلون إلى مستوى الإتقان، وجد لفليس وزملاؤه أنّه « في الوقت الّذي استطاع فيه الشّباب اليافع من ضعاف التّحصيل إحراز تقدّم أسرع على مستوى الولايات المتحدة بين عامي 2000–2007، جاء أداء الشّباب المميّز واهنًا وضعيفًا». إنّ وصف (واهن أوضعيف) هي الصّفة التي لا نريد أن نصف بها تحصيل الأطفال الموهوبين، وهي كذلك ليست الصّفة المناسبة التي تودّ أن تصف بها ما تحلّم به للمستقبل.

وحذّر بلاكر، وبوروز، وسونج Plucker, Burroughs & Song في تقرير نُشِر مطلع عام 2010 بعنوان (الاهتمام بالفجوة «الأخرى» Mind the (Other) Gap)، من اتساع فجوة التَّميُّز داخل الولايات المتحدة، وهو الأمر الذي لا يُذكر كثيرًا. وقد احتوى التّقرير على اقتراح بوجوب طرح السّؤالين الآتيين قبل اتخاذ قرارات في الصّفّ، أو المدرسة، أو المنطقة التّعليميّة:

1. كيف لهذا القرار أن يؤثّر في طلّابنا اللّامعين؟
2. كيف لهذا القرار أن يساعد الطلّاب الآخرين على رفع مستوى الإنجاز لديهم إلى مستويات عليا؟

لا شكّ في أنّ مثل هذه الأسئلة قد ترفع مستوى الوعي بتأثير القرارات التي تُتّخذ داخل الصّفّ، أو المدرسة، أو المنطقة- في إزالة سقف التّعلُّم. فحين ينخفض سقف التّعليم لن يستطيع الطلّاب بلوغ التّميُّز، ويكون ذلك صحيحًا عندما يكون سقف التّعليم هو مستوى الفصل الدِّراسيّ العاديّ؛ أي حدّ الكفاية.

وكما يقول جون بريدجلاند John M. Bridgeland، أحد مؤلفي كتاب: فخّ التّحصيل: كيف تخذل أمريكا ملايين الطلّاب الموهوبين من العائلات متدنّية الدّخل Achievementrap: How America Is Failing Millions of High-Achieving Students From Lower-Income Families (Wyner, Bridgeland, & DiIulio, 2007)، فإنّ «هؤلاء الأطفال غير العاديين موجودون في كلّ أنحاء أمريكا، ويمثّلون الحلم الأمريكيّ، ويتحدَّون الصّورة النّمطيّة عن وقوف الفقر عائقًا أمام الإنجاز الكبير. وعلى الرّغم من المؤهلات والخبرات والكفايات، فإنّ مدارسنا تعمل على إفشال كلّ خطوة في طريق الإنجاز». لذا، كانت أولى توصيات مجلس العموم القوميّ (the National Science Board, 2010) «توفيرَ الفرص للتّفوّق»:

> «نحن لا نستطيع أن نتوقّع من أكثر طلّابنا موهبة إحراز النّجاح وحدهم. وبدلًا من ذلك، يجب علينا التّدخّل بعمل تفاعليّ منسّق ومستدام على المستويين؛ الرّسميّ وغير الرّسميّ، وصولًا إلى تطوير قدراتهم. وفي المقابل، يتعيَّن تدريس الطلّاب بسرعة وعمق، واتساع يكافئ اتساع موهبتهم واهتماماتهم، وبطريقة تحفِّز المشاركة، والفضول الثّقافيّ، وحلّ المشكلات الإبداعيّ- وهي المهارات الضّروريّة للابتكار مستقبلًا».

لقد توصلت دراسات كثيرة إلى أنّ أداء الطلّاب المنحدرين من عائلات متدنيّة يكون ضعيفًا باستمرار، بصرف النّظر عن الصّفّ الدِّراسيّ. وعليه، فإنّ أحد الحلول المطروحة في الكتاب المذكور أعلاه هو وجوب قيام المربّين برفع سقف توقعاتهم بخصوص هؤلاء الطلّاب، وتطبيق إستراتيجيّات فاعلة للتّوسّع في التّعليم المتقدّم بين أفراد هذه الطّبقة.

(Wyner et al., 2007, p. 7). لـذا، يتعيَّـن علـى المعلِّميـن جميعًـا رفع سقـف توقّعاتهم المخصوصة بطلّابهم كافة، بصرف النّظر عن خلفيّاتهم.

قـد يتساءل أحدنا: مـا أهمية التَّميُّز فـي مدرستك؟ أليس هو هدف فريـق كرة السّلّة أو كـرة القدم فـي مدرستك؟ ما آمله هـو أن يجعل الأكاديميّون التَّميُّـز الهدف المنشود في عمـوم المدرسـة. مثلًا، ما شكل التَّميُّز فـي العلوم، أو الدّراسات الاجتماعيّـة، أو اللّغات، أو الرّياضيّات، أو الفنون البصريّة، أو الأدائيّة؟

وقـد ناشـد الصَّحفـيّ والكاتـب الأمريكيّ المعـروف توماس فريدمـان (Thomas Friedman , 2010) المجتمـع كلّـه للمشاركـة في دعم مسـار التّفوّق، وذلـك في مقالة له بصحيفة نيويورك تايمز:

> حيـن بدأت العولمـة والتّقانة في إعـلاء شأن التّعليم العالـي، وأصبحت الحاجـة إليه أكثر إلحاحًـا، أخذت أمريكا تتراجع أمـام منافسيها من دول العالم فيما يخصّ معدلات التّخرّج في المدارس العليا والجامعات، ونتائج الاختبار العالميّ في الرّياضيّات والتَّفكير النّاقد.
>
> وبعيـدًا عن الكساد، فإنّ هذا الحظّ العاثر يمثِّل أحـد الأسباب الرّئيسة لركود أجور الطبقة المتوسطـة. ولتجاوز ذلـك، علينا حشد جهـود الحكومة، ورابطة المعلِّميـن وأولياء الأمور؛ فنحن في حاجة ماسّة إلى المعلِّمين والمديرين الّذين يتقاضون أجورًا أعلى. ليس فقط لأنّهم يـؤدّون أداءً أفضل، بل لارتباط تقييمهم وتميّزهم بمـدى تكريس حياتهم وأوقاتهم للطلّاب والتّعليـم. إضافـة إلى هذا، نحن في حاجـة إلى أولياء أمور مستعدين لحفـز أبنائهم؛ بغية تحقيق مستويات تعليميّة أفضل، إلى جانب طلّاب أفضل يأتون إلى المدرسة وهم مستعدون للتّعليم، لا للتّلقين. وكي نتمكّن من دعم ذلك كلّه، فإنّنا في حاجة إلى جهد المجتمع كلّه؛ من البيت الأبيض إلى غرف الصّفوف، فالمنزل؛ لتنمية ثقافة الإنجاز والتّفوّق.

شكل 15: لا يوجد عبء أكبر من امتلاك قدرات عظيمة

الخلاصة

يشير الرّسم السّاخر في الشّكل السّابق إلى فكرة مفادها: لا يوجد ما هو أثقل من عبء أن تكون لديك إمكانات عظيمة. فكِّر في الصّورة الأخيرة والرّسالة البليغة الّتي تحملها؛ إنّها رسالة مهمّة يتعيَّن عليك العمل بمضمونها في أثناء تدريس الأطفال الموهوبين. تذكَّر أنّ كثيرًا من العامة، والمربّين يعتقدون اعتقادًا جازمًا أنّ هؤلاء الموهوبين يمكنهم النّجاح وحدهم، وقد يساورك هذا الاعتقاد نفسه حيالهم. وفي واقع الأمر، فإنّ منح الأطفال الموهوبين الفرص لإظهار ما لديهم من إمكانات عظيمة ليس هو الهدف من هذا الكتاب.

إنّ هذا الكتاب دليل للإنقاذ، أُعِدّ من أجل المعلِّمين، وهَدَفَ إلى مدّهم بالمعلومات والإستراتيجيّات الّتي تساعد هؤلاء الموهوبين على التّقدّم، واستغلال كامل إمكاناتهم. إنّ الهدف هو تخفيف الشّعور بالعبء الّذي يُخالِج بعض الأطفال الصِّغار من جرّاء المواهب والقدرات الّتي يمتلكونها. إنّ عليهم أن يجعلوا هدفهم تحقيق التّميّز، والحصول على فرص التّعلُّم من أجل الوصول إلى ذلك الهدف السّامي.

نصائح من أجل البقاء:

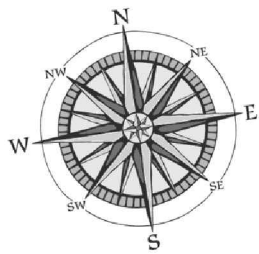

- لا تتجاهل التَّميُّز في عصر البحث عن الكفاية أو الإتقان.
- على أولياء الأمور إدراك أنّ الكفاية أو الإتقان مرتبطان بمستوى التَّعلُّم الصّفّي، وأنّ أبناءهم في حاجة إلى جعل الامتياز هدفًا لهم. إنّ عليهم حفز أبنائهم لبلوغ التَّميُّز، وإدراك أنّ المدرسة يمكنها أن تصل بأبنائهم إلى مستوى الكفاية إن لم يكونوا قد وصلوا إليها، وكذلك تعليم الطلّاب الّذين جاوزا مرحلة الكفاية، وإيصالهم إلى مستويات أعلى من التَّميُّز.

حقيبة أدوات المعلم للبقاء في الميدان

- إهدار العبقرية: كيف يمكن أن نوقف إضاعة أطفالنا الصِّغار اللّامعين؟

Davidson, J., Davidson, B., & Vanderkam, L. (2005).

Genius denied: How to stop wasting our brightest young minds. New York, NY: Simon & Schuster.

- فخّ التّحصيل: كيف تخذل أمريكا ملايين الطلّاب الموهوبين من العائلات متدنّية الدّخل؟

Wyner, J. W., Bridgeland, J. M., & DiIulio, J. J. (2007).

Achievementrap: How America is failing millions of high-achieving students from lower-income families. Landsdowne, VA: Jack Kent Cooke Foundation.